بسم الله الرحمن الرحيم
- مَعالِي فضيلةِ الإمام الأَكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيبِ - شيخِ الأزهرِ الشَّريفِ.
- السَّادةُ الحُضُورُ.
الآنَ سألتُ نفسِي سؤالًا: كيفَ يُمكِنُ أن نُعَلِّمَ أولادَنا ماهيَّةَ الحقِّ وكيفيةَ الحصولِ عليهِ، وماهيَّةَ الباطلِ وكيفيةَ مقاومتِهِ؟، خاصَّةً ونحنُ نعيشُ زمنَ الوهنِ فِي مناطِقَ كثيرةٍ، وَوَجدتُ نفسِي أُردِّدُ مَقولةَ أَبِي القاسمِ الشَّابِّي: «مَا الرَّأيُ؟ فَالرَّأيُ المُقدَّسُ هَا هُنَا..».
فِي هَذَا السِّياقِ عندَمَا أَتكلَّمُ عن الهُويّةِ، لن أَتكلَّمَ عنهَا من خلالِ قوامِيسِ اللُّغةِ وَمَعاجِمِهَا، وَلكِنَّنِي أَتكلَّمُ بِاعتبَارِهَا جُزءًا من وُجودِ الذَّاتِ، بَل هيَ الذَّاتُ فِي تعبيرِهَا الدَّقيقِ الحقيقِيِّ كَمَا يقولُ الجرجانِيُّ فِي تعريفاتِهِ، بل أَستطيعُ أن أقولَ: إنَّ أُمَّةً تَفتَقِدُ هُويتَهَا؛ إِنَّهَا تَفتقدُ أسبابَ وجودِهَا وَقواعِدَ تَقدُّمِهَا وَحركةَ استئنافِ مَسِيرَتِهَا فِي الحياةِ علَى المستوَى الثَّقافِيِّ والسِّياسِيِّ.
نحنُ لا بُدَّ أن نَعترِفَ أَنَّنَا كأُمَّةٍ رخوَةٍ فِي هذَا الزَّمنِ الَّذِي نعيشُ فيهِ تَكَالَبَت علينَا الأعداءُ من كُلِّ جانبٍ، حتَّى هؤلاءِ الَّذينَ يُصافِحُونَنَا، تَكَالَبوا علينَا مِن كلِّ جانبٍ، وَهُنَا تَذكَّرتُ أمرَينِ أُرِيدُ أن أختمَ بهِمَا هذَا المؤتمَرَ الطَّويلَ.
أقولُ: إنَّ مَا قالَهُ فَضيلةُ الإمامِ الأكبرِ فِي الجلسةِ الصَّباحيَّةِ، فِي افتِتَاحِهَا: بأنَّ مُكوِّناتٍ ثقافيَّةٍ تعليميَّةٍ جديدةٍ يَنبغِي أن نَطرُقَهَا، وأن ندخُلَ إِلَى ساحَتِهَا، وَأن نُعلِّمَهَا لأبنائِنَا وَلأجيالِنَا القادمةِ؛ لأنَّهَا تُمثِّلُ طوقَ نجاةٍ.
وَتذكَّرتُ عبارةً كُنت أكتبُهَا فِي هذَا الملخَّصِ لِـ(مكبوريُو) -الكاتبِ الإنجليزِيِّ المشهورِ وَالسِّياسِيِّ المعروفِ الَّذِي كانَ يقولُ: - وكانَ ذَلكَ فِي عامِ ١٨٣٥م، يَعنِي منذُ أكثرِ من قرنينِ من الزَّمانِ- مَاذَا قَالَ الرَّجلُ؟
يقولُ: «لَقَد سافرتُ إِلَى الشَّرقِ طُولًا وَعَرضًا، لَم أَجِد شخصًا واحدًا يَتَسَوَّلُ أو يسرِقُ، لقد وجدتُ هذَا البلدَ ثَريًّا لدرجةٍ كبيرةٍ، وَيتَّمتعُ أهلُها بِقِيَمٍ أخلاقِيَّةٍ عاليةٍ، وَدَرَجَةٍ من الرُّقِيِّ رفيعَةٍ، حتَّى إنَّنِي قلتُ: إنَّ هذَا لن ينكَسِرَ، إنَّ هذِهِ الأمةَ لن تنكَسِرَ إلَّا بِكَسرِ عَمُودِهَا الفقرِيِّ؛ وهُوَ تُراثُهَا الثَّقافِيُّ، وَلِذَا أقتَرِحُ أن يأتيَ نظامٌ تعليمِيٌّ جديدٌ يَحلُّ محلَّ النِّظامِ القديمِ؛ لأنَّه لو بدأَ هؤلاءِ يعتقِدُونَ أنَّ كلَّ مَا هوَ أجنبِيٌّ أو إنجليزِيٌّ هوَ جيِّدٌ وَأحسنُ مِمَّا هوَ محلِيٌّ، فإنَّهُم سيفقِدُونَ احترَامَهُم لأنفُسِهِم وَثقافَتِهِم المحلِّيَّةِ، وَسَيُصبِحُونَ كَمَا نُرِيدُهُم، وَهذِهِ هيَ الأمَّةُ الَّتِي يُمكِنُ الهَيمَنَةُ عليهَا».

إذًا.. صِرَاعُنَا مَعَ أَعدَاءِنَا وَخُصُومِنَا - وَهُم كُثُرٌ- ليسَ عسكرِيًّا بِالدرجةِ الأُولَي، أو إعلامِيًّا بِالدرجَةِ الثَّانِيَةِ، بل ثَقَافِيٌّ، ومن خِلالِه لا بُدَّ أن تَنبُتَ أعوادٌ جديدةٌ تستطيعُ أن تُقاوِمَ هذَا الغرسَ السَّيِّءَ الَّذِي غُرِسَ فِي ثقافَتِنَا وتفكيرِنَا، وَتَصَوُّرَنَا أنَّ كلَّ جديدٍ جَادٌّ، وأنَّ كلَّ مَا يُمكِنُ أن يأتيَنَا من هذِهِ المنطقةِ أو تِلكَ يُمكِنُ أن يَبُثَّ فينَا حَيَوِيَّةً، وأن يُعطيَنَا طاقاتٍ جديدةً. هذَا وَهمٌ نَعتَقِدُهُ.

وأختمُ وأقولُ: فيمَا يتعلَّقُ بالهُويَّةِ فقد قلتُ: إنَّهَا ترتبطُ بأمرينِ عندَمَا نريدُ أن نَبحَثَهَا بحثًا عِلمِيًّا دَقيقًا، كِلاهُمَا هوَ: الاجتهادُ وَالتَّجديدُ، وَكِلاهُمَا لَا يَعنِيَانِ اصطلاحًا وَوَظِيفَةً: اِقتِلَاعَ كلِّ شيءٍ من جُذُورِهِ، أو البَدءَ من الصِّفرِ، فَهذَا تَهوِينٌ لعقلِ الأُمَّةِ، وَتَبدِيدٌ لِمَا بَذَلَهُ الآباءُ والأجدادُ.

إذًا.. الهويَّةُ الَّتِي نُريدُهَا وَالَّتِي تُحرِّكُنَا؛ هيَ الَّتِي تَستطيعُ أن تَتَفَاعلَ معَ تاريخِنَا وَأَديَانِنَا وثقافَتِنَا، وَتستطيعُ أن تَضَعَ مُشكلاتِنَا المُعَاصِرَةَ فِي قلبِ حَرَكتِنَا الفكريَّةِ والسِّياسيَّةِ وَالثقافيَّةِ، وَهذَا مَا يجعلُ الصِّلَةَ وَثِيقَةً بينَ هذِهِ التَّنمِيَةِ الثَّقافيَّةِ وَبينَ قضيَّةِ القُدسِ، فَحياتُنَا لَيسَت جُغرافيَّةً مُتَّصِلَةً؛ إنَّهَا أعمقُ من ذلكَ بكثيرٍ.

إنَّهَا وِجهَةُ الهُويَّةِ المُقَاوِمةُ لكلِّ ألوانِ العَسَفِ والجورِ والطُّغيانِ.

إنَّها قضيَّةُ وجودٍ بكلِّ مَا فِي ذلكَ من معنًى، وَليسَ مُشكلةَ حدودٍ قَابِلَةٍ للحوارِ وَالتَّبادُلِ، فَالتَّارِيخُ لَا يُبَاعُ، وَالعِرضُ لَا تَفَاوُضَ عَلَيهِ.

أَشكُرُكُم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته